الأخت
باسمة الخوري
دكتورة في لاهوت
الكتاب المقدّس

«**نؤمن بأنْ لا إله إلاّ الله**» (١ كو ٨: ٤)
الذي «**اختار ما يعتبره العالم ضعفًا ليخزي الأقوياء**» (١ كو ١: ٢٧)

مقدّمة

يذكّر القدّيس بولس أهل كورنتس الذين اندفعوا في تلبية رغبات الجسد، وقد ألّهوا الأهواء والشهوات، بأنّ دورهم هو أن يكونوا منارة في العالم يشهدون في حياتهم أنْ «لا إله إلا الله» (١ كو ٨: ٤)، قبل أن يشرح أنّ هذا الله الذي لا إله سواه هو آب عرفناه بالربّ يسوع وبقوّة روحه.

فما الذي عرفناه عنه؟ ومن هو هذا الله الذي نعبده؟

اعتدنا جميعًا عبر الأجيال أن نعلن أنّه «العليّ»، «ضابط الكلّ»، «إله الجنود»، «ربّ الصباؤوت»، «الربّ الإله القدير»... ولكن في مقابل هذه النظرة البشريّة إلى الله الأوحد كإله «كلّيّ القدرة»، يبرز ما كشف الله عن نفسه لموسى، وما كشفه يسوع عن الله. فيوم طلب التلاميذ من يسوع أن يعلّمهم الصلاة قال لهم: «قولوا أبانا» (لو ١١: ١)، وفهم بولس ذلك فصلّى «بابا». فهل تغيّر الله القدير القويّ الذي أعطى شعبه في الماضي النصر على أعدائه في كلّ الظروف، وصار أبًا ضعيفًا أمام حبّه ورحمته حتّى أنّه ما استطاع أن يخلّص يسوع من الموت المهين والألم القاتل؟

ولكن هل إله العهد القديم هو كما نقول؟

عندما ظهر الله لموسى في العلّيقة المحترقة طالبًا منه أن يكون رسوله لخلاص شعبه،

اشتكى هذا الأخير من عدم معرفته له، وسأله: «إذا سألوني ما اسمه فماذا أجيب؟» (خر ٣: ١٢). فماذا كان الجواب؟

كان الله قد أعلن له: «أنا إله أبيك، إله إبراهيم، إله إسحق وإله يعقوب» (آ ٦)، لكن ذلك لم يكفه، فهو لا يعرفه، ولا يمكن أن يكتفي بأن يكون الله إله الآباء فقط، أي إله الماضي مع كلّ جلال هذا الماضي وجماله. وأعطى الله اسمه «أنا هو الذي هو». في الحقيقة أعطى الربّ موسى أحرفًا أربعة لا تلفَظ (ي ه و ه)، وقد فهم الأنبياء ذلك فقرأوا «الربّ»، وفسّروا «الكائن الذي سيكون» بمعنى أنّه الحاضر أبدًا. هذا الحاضر يقول: «نظرت إلى معاناة شعبي، سمعت صراخهم، فنزلت لأنقذهم... والآن اذهب».

آمن إبراهيم، كما نؤمن اليوم بأنْ «لا إله إلا الله» فعبده ونعبده نحن أيضًا، لكنّ الله أفهمه بأنّه «هو الذي هو» أي من لا يمكن لأحد أن يحبسه في منظومة دينيّة جامدة. إنّه الحاضر الذي يرافق المؤمنين به في مسيرة حياتهم ويلتزمون به في كلّ زمان ومكان وفي كلّ الأحوال.

فإن كان الله الأحد هو الحاضر لشعبه في الأمس واليوم، فإنّ السؤال الذي يُطرح، لماذا يجد هؤلاء أنفسهم أمام الألم والاضطهاد؟ أليس الله كلّيّ القدرة والضابط كلّ شيء قادرًا بقوّته على تجنيبهم ذلك؟ وأكثر من هذا، ألا يقدر أن يدافع عن نفسه؟ وإلاّ فلماذا نشهد اليوم حرقًا للكنائس، وهدمًا للمعابد، وتدنيسًا للقرابين والأيقونات؟ فهل فقد الله قوّته، أو أنّنا نؤمن بمن لا نعرف؟

نعم نحن نؤمن بأنْ لا إله إلا الله، ولكن من هو هذا الله؟

الإيمان بأن «لا إله إلاّ الله»، والإيمان بأنّ «الله اختار الضعف»

لا يمكن أن نعتبر كلام القدّيس بولس تعبيرًا ظرفيًّا موجّهًا حصرًا إلى كنيسة كورنتس أو إلى إحدى فصائلها. فهو بالحقيقة نظرة لاهوتيّة ذات طابع عامّ. يؤكّد الرسول أنّ الله اختار أن يعمل على هذا النحو في العالم، لقد اختار إذًا ما يُظهر من نفسه للعالم. فهذا الاختيار ليس مرتبطًا بالظروف بل بالتاريخ الذي أراد الله أن يعيشه مع العالم، على

الرغم من رفض البشر له، لأنّ حكمة الإنسان لا يمكنها أن تستوعب الله في حكمته.

اختار الله أن يخلّص المؤمنين بواسطة جنون البشارة، لأنّ اليهودَ يطلبون الآيات، واليونانيّين يبحثون عن الحكمة، إنّما نحن نبشّر بالمسيح المصلوب ممّا يُعتبر شكًّا وعثارًا «حاشا لله أن يكونه» بالنسبة إلى اليهود، وحماقة وجهلاً لا يمكن تصوّره بالنسبة إلى الوثنيّين (١ كو ١: ١٨-٢٧)، ولكن بالنسبة إلى المؤمنين فالمسيح هو قدرة الله وحكمته. هذا هو إنجيل القدّيس بولس وليس هناك من إنجيل آخر (غل ١)، وبولس هو الشاهد التاريخيّ الذي اختير على الرغم من ماضيه المذلّ، وتاريخه كمضطهد للمسيح باضطهاده لأتباعه. اختير كأنّه سقط (١ كو ١٥: ٨) فصار تعبيرًا عن إنجيل النعمة والخلاص المجّاني. أظهر المسيح المصلوب أنّه هو خيار الله في تجديد العالم، الذي لا يمكنه بواسطة حكمته البشريّة وحدها أن يتعرّف إلى جوهر الله وحقيقته. فالمسيح المصلوب لا يشكّل تغييرًا في خطّة الله الخلاصيّة، لأنّ حكمة الصليب، بحسب القدّيس بولس، هي الطريقة التي أراد الله «إله إسرائيل»، أن يعرفه العالم من خلالها (١ كو ١: ١٨) منذ البدء وعبر التاريخ كلّه، لكنّ أحدًا لم يستطع الوصول، لا من خلال الفلسفة والحكمة ولا من خلال الإيمان اليهوديّ التقليديّ. أمّا المسيحيّ فمدعوّ إلى أن يرى، على ضوء المسيح المصلوب، ثبات خطّة الربّ من إبراهيم حتّى المسيح، على ما يظهر في موقف أشعيا النبيّ من المواجهة بين المنطق البشريّ السياسيّ المادّيّ وبين حكمة الله الغريبة عن فكر البشر: «فها أنا أضع مرّة أخرى عجبًا عجابًا بهذا الشعب، فتبيدُ حكمة حكمائه وينكشف عقل عقلائه» (أش ٢٩: ١٤؛ رج ١٩: ١١-١٢)[1]. إنطلاقًا من هذه الفكرة يجدر بنا إعادة قراءة العهد القديم على ضوء ما كشفه يسوع وما عاشه وعلّمه، لنتأكّد من أنّ إله الشعب اليهوديّ، كما إله يسوع، لم يظهر أبدًا كقدرة مطلقة وقوّة وإبادة بل كشف أنّه إله وديع متواضع، إله ضعيف، لأنّه رحمة ومحبّة، إله قرّر بقدرته أن يكون الضعيف لأنّه التزم بشعبه خلال التاريخ.

نظريّة كهذه تحتوي قطعًا على مخاطر عدّة تدعو إلى التشكيك. في المستوى الأوّل يظهر في كلامنا على «خيار الله» خطر «أنسنة» الله بحيث نجعله يختار كما جعل له العهد القديم يدين وذراعين، واعتبره قادرًا على الغضب والتسامح والحبّ... ويأتي في المستوى

١ يسعى أشعيا إلى إبراز المفارقة ما بين نزعة الثورة والقدرة عند الإنسان في مقابل حكمة الله وإرادته المغايرة، خاصّة أنّه كان يتكلّم تحت تهديد القوّة الأشوريّة العظمى، ممّا يعكس رفضًا تامًا لفكرة تعريف الله على أنّه «كلّيّ القدرة» بحسب المفهوم البشريّ للقدرة الكلّيّة.

الثاني خطر تحويل «خيار الربّ» إلى قدر محتوم وكأنّ «قدرة الله» حتّمت خلاص بعضهم وهلاك بعضهم الآخر مما يناقض تمامًّا كلّ ما أعلنه يسوع المسيح في تعليمه وعمله الخلاصيّ، ممّا يجعل بالتالي من الإنجيل كلامًا فارغًا. فإن كان خيار الله هو حكمًا مبرمًا اتّخذه «كلّيّ القدرة» منذ الأزل فلماذا تجسّد يسوع؟

أمّا في المستوى الثالث فالخطر يكمن في أنّ فكرة اختيار الله للضعف تدعو إلى الشكّ بدلاً من أن تحثّ على الإيمان، فهل اختار الله عذابات المسيح وموته لأنّه عارف بأنّه الأقوى وبأنّ الغلبة ستكون في النهاية له، وبأنّه سيمسك أخيرًا بزمام الأمور ويعوّض عن موت الابن بقيامته؟

ويظهر أخيرًا الخطر الكامن في فهم موت المسيح كذبيحة تكفير عن الخطايا حيث تدخل هذه الفكرة أساسًا في إطار الثقافة الدينيّة اليهوديّة التي جعلت من الذبائح وسيلة لتصحيح العلاقات بين الله والبشر الخاطئين الذين خانوا العلاقة به. لكنّ هذا التفسير يتعارض تمامًّا مع التأكيد التقليديّ على قدرة الله المطلقة، فلماذا يجب على «كلّيّ القدرة» أن يقبل بأن تحلّ به الخيانة؟ ثمّ إنّه تفسير يناقض التأكيد على «خيار الله القدير» فإن كان الله «كلّيّ القدرة» فلماذا عليه أن يختار الذبيحة؟ ولمن تقدَّم هذه الذبيحة؟ وهل الذبيحة كافية للإرضاء؟ ومن ترضي؟ هذا ما يرفضه عالم اليوم الذي يرفض لغة الذبائح، وهذا ما رفضه القدّيس بولس. من هنا أتى تأكيده على أنّ الله «اختار ما يعتبره العالم حماقة ليخزي الحكماء، وما يعتبره العالم ضعفًا ليخزي الأقوياء» (١ كو ١: ٢٧).

في كلام بولس هذا خطرٌ جنونيّ. فهو يوازي ما بين «حماقة» الله، في نظر البشر طبعًا، و«الضعف»؛ ويتخطّى حسابات الربح والخسارة، بحسب حسابات البشر الاستراتيجيّة والسياسيّة، ليبني علاقات على أساس المحبّة والغفران. وهنا تظهر في هذه القراءة صورة لمحبّة الله الثابتة لشعبه الذي خان محبّته جيلاً بعد جيل، بحيث يظهر أنّ ضعفه تجاه هذا الشعب هو ضعف المحبّة الأمينة التي لا تتغيّر بحسب الأشخاص. ولكن، هنا أيضًا نحن أمام خطر آخر يكمن في كيفيّة العبور من نظريّة ضعف الله المحبّ، إلى المجد الإلهيّ الذي لا بدّ من أن يطبع نهاية الأزمنة.

شغل هذا السؤال الكنيسة في عقودها الأولى وقد اصطدم به القدّيس بولس نفسه فلجأ إلى العقيدة اليهوديّة والصور الرؤيويّة التي كانت ترسمها لنهاية الأزمنة (١ تس ٥)، لكنّه مع تقدّم تفكيره اللاهوتيّ، استعاض عنها بتفسيرٍ وصَفَه بأنّه إيحاء وهو في الحقيقة

اعتراف بعدم قدرة الإنسان على فهم حكمة الله (رو ١١: ٢٥) ودعوة إلى الثقةِ الكاملة بها (رو ١١: ٣٣).

١ - في العهد القديم

تاريخ الخلاص يشهد على أنّ الله اختار الضعف

من خلال شخصيّات أبطال التاريخ وأحداثه

في مرافقتنا الشخصيات العهد القديم، نتفاجأ بأنّنا أمام أناس هم أبعد ما يكونون عن الصورة التي نضعها عادة للأبطال المعصومين مِن الخطأ.

- **فإبراهيم** اختاره الله دون أي مبرّر أو مخطّط أو مشروع، لم يختره بسبب عائلته أو غناه (تك ١٢: ٥)، وليس لأنّه كان ذا ذكاء خارق وإنجازات عظيمة. فالكتاب المقدّس لا يعطي مبرِّرًا لهذا الاختيار سوى إرادة الله، ولا يقدّم مشروعًا سوى وعد الله: «سأجعل منك أمّة عظيمة». منذ البداية نفهم أنّ البطل الحقيقيّ للقصّة هو الله الذي نحمّله كلّ النتائج المرتقبة. فالجميع يعلم أنّ الأبطال يتعبون في الخامسة والسبعين من عمرهم. أمّا إبراهيم، ومن دون أيّة معارضة، تحوّل من مدنيّ مرتاح مستقرّ إلى بدويّ راحل نحو المجهول، يضع خيامه أوّلاً في بيت إيل فيواجه المجاعة والجفاف، ويُجبر على الترحال الدائم.

فهل أنّ يهوه جاهل بما سيحدث؟ أو إنّه يتصرّف بصورة غريبة مع شركائه مرّة تلو الأخرى (تك ١٢: ١ي)؟

في مسيرته مع الله سيرتكب إبراهيم المختار الخطأ تلو الآخر. نراه يعطي زوجته الجميلة الى الفرعون مقابل هدايا، ولكن بدلاً من أن يعاقِب الله إبراهيم صبّ جام غضبه على الفرعون على الرغم من حسن نيّته. ومع ذلك سمح هذا الأخير لإبراهيم بأن يخرج من أزمته مع كلّ قبيلته دون أيّ أذى (عكس ما جرى مع موسى) ليعود ويرتكب الخطأ-

الخطيئة عينه مع الملك الفلسطيّ أبيملك (تك ٢٠)، فنرى أبيملك يرجِع سارة دون أن يمسّها بعد أن حذّره الربّ في حلمه. وهذا ما جرى مع أبيملك نفسه أمام بهاء رفقة زوجة إسحق (تك ٢٦). والغريب عند الراوي أنّ فساد الآباء وعدم ثقتهم بعناية الله بهم لم يشكّكانه، لأنّ تفسيره لهذه الأحداث يؤكّد أنّ الله يستطيع أن يجعل الأعداء التاريخيّين يسمعون كلمته ويطيعونها. لكنّ تفسير النبيّ، كاتب النصّ، لا يلغي تساؤل المؤمنين: أين قدرة الله في كلّ ذلك؟

ويأتي الجواب في الفصل الثالث عشر من سفر التكوين مباشرة بعد خروج إبراهيم من مصر إلى بيت إيل حيث وضع خيامه وبنى مذبحًا للربّ، فإذا به يختلف مع لوط قريبه ووريثه الوحيد. صحيح أنّ إبراهيم يظهر في القصّة بصورة البطل المؤمن المحبّ، لكنّ الأهمّ هو أنّنا أمام العودة إلى وعد الله: ليس لوط من سيرث إبراهيم بل ابن الوعد، وليست الأرض المنطقيّة هي الأفضل، بل حيث يريد الله لأنّ الأرض كلّها لله: «أنظر إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب!» (تك ١٣: ١٤)؛ فالجهات الأربع ملك للربّ! في تك ١٥، وبعد اعتراف إبراهيم بحزنه وفقره سيعود ويؤكّد له وعوده: «لا يرثك هذا بل من يخرج من صلبك هو يرثك، وأعطيك هذه الأرض ميراثًا لك». وآمن إبراهيم بذلك، فاستحقّ أن يكون أبا المؤمنين (غل ٣؛ رو ٤)، ولكن بعد ذلك مباشرة يقول له الله: «إعلم يقينًا أنّ نسلك سيكونون غرباء في أرضٍ ليست لهم ويستعبدون...» (تك ١٥: ١٣)، وكأنّه يربط حدث الخروج بإبراهيم؛ فما هذه الطريقة الغريبة في معاملة الله لشركائه؟

في قراءتنا للأحداث نرى أنّ الصراع بين الضعف أو الفقر الحاضر، وبين المستقبل الزاهر المتوقّع والمنشود يترافق مع ولادة الإيمان في نفوس الناس.

هَدَفَ تقليد العهد القديم إلى نوعٍ من التعليم الذي يدعو إلى قبول الصعوبات والفشل والعذاب في الحاضر على رجاء تعويضٍ لاحق، ممّا يستتبع نوعًا من الحذر المبدئيّ تجاه الغنى والقدرة المرتبطة به. ولكنّ العهد القديم لا يربط هذا التعويض بالحياة ما بعد الموت بل بتاريخ الشعب المؤمن. وهنا أيضًا يُطرح السؤال: ما هي علاقة الربّ بضعف أتباعه وذويه؟ فهل ذلك قصاص؟ أم تجربة؟ أم اختيار؟ وفي هذا كلّه مجرّد وسيلة لإظهار القدرة الإلهيّة دون حدود، ودون قواعد مفهومة ولا مبرِّرات واضحة؟ وفي المحصّلة يبقى السؤال مطروحًا: ما هو دور الله الفعليّ في هذا التاريخ؟

- مع **يعقوب**، نشهد مفهومًا جديدًا لله. نراه مرّتين يحلف أمام لابان بالله «مهابة إسحق» (تك ٣١: ٤٢، ٥٣) بمعنى المخافة التي ترافقه على الدوام، وكأنّه يريد إخافة خاله ووالد زوجته. فهل يمكن أن نأتمن لاهوتًا يتماشى مع الظروف؟ أكثر التوأم عيسو ويعقوب من النزاعات والزيجات والأطفال والخداع والعنف، ممّا يدعو إلى التساؤل حول دور الله في كلّ ذلك. فيعقوب يمثّل شخصيّة سيّئة السمعة لا يمكن الوثوق بها، وقد أظهر دومًا أنّ هدفه الأوّل هو أن يغتني أوّلاً على حساب أخيه، ثمّ على حساب قريبه لابان (تك ٣٠)، وفوق ذلك يدّعي مع زوجاته أنّ ثروته ونجاحه هما من عند الله (تك ٣١: ٩، ١٦)، في حين إنّ خروجه من عند لابان إلى أرض إسحق يعود إلى احتياله وتواطؤ زوجاته وليس إلى تدخّل الربّ. ومع ذلك يتحوّل يعقوب هذا السيّئ السمعة إلى شاهد مهمّ. ونراه يخوض، بعد آخر عمليّاته الفاسدة، معركة مواجهة مع الله ويخرج منتصرًا (تك ٣٢: ٢٥-٣٠)، فأين مقدرة الربّ في كلّ ذلك؟ فهل كان من الممكن وضع هذا النصّ في الكتب المقدّسة لو كان الكتاب المقدّس يدعم لاهوت «الله الكلّيّ القدرة»؟ ربّما يتساءل المؤمنون أين يكمن انتصار يعقوب الذي خرج معاقًا أعرج بينما خرج خصمه معافى ولكن مهزومًا؟ وربّما نظنّ أنّ النصّ يوحي بأنّ نصر يعقوب لا يكمن في التفوّق في ساحة المعركة إنّما في جملة: «لا أطلقك أو تباركني». ولكن لماذا لم يستجب الخصم المهزوم عندما سأله يعقوب أن يعرّف بنفسه؟

بارك الربّ يعقوب لكنّه لم يطعه. فليس ليعقوب أيّ حقّ على الربّ الذي يبقى خارج كلّ تعريف، ولا يمكن لأيّ كان أن يعرف كيف ومتى يظهر في حياته.

في رواية أخرى نقرأها في كتاب هوشع النبيّ، يظهر يعقوب ممثّلاً لكلّ الشعب الملتزم في هذا الصراع الذي يهدف إلى مواجهة الربّ وجهًا لوجه لكي يكلّمنا على طريقته التي غالبًا ما تكون قاسية لا تُفهم، فنقرأ أنّ يعقوب تصارع مع الملاك فغلبه، لكنّه بكى وتوسّل في بيت إيل حيث التقى بالربّ وتكلّم «معنا» (هو ١٢: ٣-٥) وليس «معه».

- أمّا في قصّة **يوسف** (تك ٣٧-٥٠) التي تدخل في سياق قصّة تاريخيّة تجري أحداثها في مصر، وتساعد على تفسير وجود العبرانيّين لاحقًا في أرض الفراعنة، فيظهر يوسف كبطل صالح وذلك لأنّ الله كان معه وبارك البيت المصريّ الذي عاش فيه (تك ٣٩: ٢). نحن هنا أمام تأكيد لاهوتيّ تقليديّ ثابت يقوم على الثقة بأنّ العلاقة مع يهوه مربحة.

ولكن هنا أيضًا يُطرح السؤال: أين ذهبت بركة الربّ على يوسف عندما حُبس وكان ضحيّة بريئة لعمل غير عادل؛ فهل قدرة الله وبركته تبقى غير فاعلة ولا قادرة أمام أبسط مؤامرات البشر؟ تبدو في هذه القصّة علامة لوجود الربّ حتّى في السجن. إنّه الله القدير الحاضر حتّى في أرضٍ مصريّة، يكمّل مخطّطه الإلهيّ وعمله الفاعل بطرق لا يفهمها العقل البشريّ والحكمة الإنسانيّة. تظهر هذه الألوهة السرّيّة في سلسلة الأحلام التي تراءت للفرعون ولم يجد لها تفسيرًا إلا يوسف وذلك بوحي من الله.

يتميّز يوسف بسيرة لا غبار عليها، فهو الأداة الطيّعة لعظمة يهوه، اخترع الاقتصاد وأدار شؤون ماضي حياة الشعب المصريّ ومستقبله، وأمّن بالتالي حياة عائلته وشعبه. صحيح أنّه جعل من فرعون ملكًا على كلّ الأرض المصريّة وشعبها باستثناء الذين احتفظوا بأراضيهم ونالوا من الفرعون رواتب لإعالتهم. ولكن هل في ذلك بركة من الله؟ ولماذا؟ وما هو دور يوسف في كلّ ذلك؟

ينتهي سفر التكوين بموت يعقوب ويوسف والوعد بنقل رفاتهما إلى الأرض التي وُعِد بها إبراهيم وإسحق ويعقوب (تك ٥٠: ٢٤-٢٥)، دون أن نجد في حياة يوسف تساؤلات كبرى حول دور الله في تاريخ بشر يعاندونه ولا يتجاوبون معه في غالب الأحيان، إنّما هناك تأكيد واضح على أنّ السيادة الإلهيّة هي الغالبة في كلّ الظروف مهما كثرت المشاكل والكوارث. لكنّ جنّة يوسف هذه لن تلبث أن تختفي في سفر الخروج والعودة إلى عالم إبراهيم ويعقوب.

في كلّ ما سبق، كان الواضح الأوحد هو غموض سيادة الربّ في بعض أعماله. فإنْ كان الربّ يعرف بصورة مؤكّدة هدفه الكامن في تحرير شعبه، فإنّ وسائله تبقى في غالب الأحيان صعبة لا يمكن الوثوق بها.

يمتدّ سرد حدث الترحال في الصحراء — وهو مساحة لاهوتيّة أكثر منها جغرافيّة — من سفر الخروج إلى سفر العدد، تتخلّله أعمال عجائبيّة عديدة (جعل الماء صالحًا للشرب، وتأمين المنّ اليوميّ للجميع، ومعاقبة التمرّد والتآمر، وتحديد أربعين سنة لمنع المشكّكين والمتخاذلين... من دخول أرض الميعاد) فهمها سفرا الخروج والعدد على أنّها كشف للسيادة الإلهيّة الكلّيّة القدرة، لكنّ هذا التفسير اللاهوتيّ لا يتماشى مع لاهوت القدّيس بولس على الرغم من إيمانه بأنْ «لا إله إلا الله» الذي يدير التاريخ، ويتابع مشروعه الخلاصيّ، ويتصدّى لكلّ أعداء شعبه، فإنّ سيادته ليست آليّة تحوّل الوعود إلى

حقوق مكتسبة للشعب. فالوعد مرتبط بعهد، بموجبه جعل الله من شعبه شريكًا، عليه أن يكون فعّالاً من خلال ثقته الكاملة به. فالله إذًا أمين في وعوده وفي تحقيقها، لكن شعبه وحده قادر على إفشال هذا المشروع وليس الأعداء.

- يتوضّح هذا التفسير اللاهوتيّ لسيادة الربّ على التاريخ في **سفر يشوع**، حيث يظهر عبور الأردن وكأنّه صورة لعبور البحر الأحمر ولكنّ بعيدًا عن أيّة معارضة أو حرب نراه يتمّ وكأنّه ليتورجيّة عبادة وصلاة. وهكذا يبدو احتلال الأرض وكأنّه مشروع مبرمج يتحقّق كما أراده الله تمامًا. فلكي لا يخطئ أحد في تفسير هذه الإرادة السياديّة طلب الله من الجميع أن يستبدلوا الحصار بتطوافٍ ليتورجيّ سقطت بفعله كلّ أسوار أريحا (يش ٦: ٣). لكنّ العقبة الوحيدة أمام هذه الإرادة الإلهيّة كانت انتهاك المحظور (يش ٧: ١ي). ورغم هذا فإنّ يهوه يؤكّد ليشوع على فراش الموت بأنّه سيكمل مشروع بسط سيادته على ما تبقّى من هذه الأرض، التي لم يحصل عليها الشعب بفعل عصيانه، فتُوزّع على الأسباط بالقرعة التي يترأسها الله بالذات. فالله هو سيّد الأرض والبشر. أمّا صورة الشعب الذي حصل على كلّ ما يريد، فامتلك الأرض وألغى وجود الآخرين، فظهر أنّه مجرّد حلم بشريّ بامتلاك القدرة الكلّيّة، رسمها سفر يشوع واختفت كالسراب في **سفر القضاة**.

فقد أُجبر العبرانيّون على عيش الشراكة مع الشعوب الموجودة على الأرض التي دخلوها. تقسّموا إلى جماعات تداخلت مع السكان الموجودين. واعترفوا بأنّ الآلهة الغريبة هي الآلهة المسيطرة، إنّها البعل أي السيّد ضامن الخصب والحياة. لذا يمكن أن نطلِق على كتاب القضاة اسم كتاب الإشراك (قض ٢: ١-٣) الذي يشجبه كتاب التثنية. من هنا لا يمكننا أن نقرأ الكتاب المقدّس وكأنّه قصّة حلم تيوقراطيّ كان محقّقًا، لأنّ الحقيقة تناقض ذلك. فشعب الله لم يتكوّن من قدّيسين، والله الكلّيّ القدرة ليس إلهًا يرتّب الأمور بسحر ساحر. إنّه الله الذي لا يستطيع أن يمنع تسويات شعبه مع الآلهة الأخرى، كما لا يمكنه أن يتحاشى المؤامرات السياسيّة والعسكريّة بين شعبه والشعوب الأخرى. إنّه في سفر القضاة، كما في سفر الخروج، الإله الذي يسمع صراخ شعبه ويتأثّر به، فيتدخّل من خلال اختيار قاضٍ يكون لهم مخلّصًا يحرّرهم (قض ٣: ٩) بتحقيق العدل. لقد بقي القضاة في غالبيتهم مغمورين غير معروفين. مجموعهم بحسب سفر القضاة إثنا عشر قاضيًا وهو عدد رمزيّ يُضاف إليه صموئيل. تظهر من بينهم دبورة النبيّة (٤: ٤)، كما يظهر **جدعون** الذي يلفت النظر بطريقته في التعريف عن نفسه: «عشيرتي هي الأضعف

في منسّى، وأنا الأصغر في بيت أبي» (قض ٦: ١٥)، وكأنّه يقول: لا يمكن اختياري، ليس لديّ أيّ حقّ أو أيّ امتياز. أمّا **يفتاح** فلا يحقّ له أن يكون من بين القضاة وذلك رغم قوّته، فهو ابن غانية (قض ١١: ١). رذله أبوه فأصبح رئيس عصابة (قض ١١: ٣)؛ اختاره الشعب لكي يتخلّص من تهديد بني عمّون. ولكي يزيد من حظوظه بالانتصار نذر نذرًا مخيفًا بأن يقدّم محرقة أوّل شخص يخرج من بيته لملاقاته بعد الانتصار. بسرده للحدث يقدّم الكاتب تفسيرًا يشدّد على قوّة إيمان الشعب في تلك الحقبة، وكأنّه لا يريد من الحدث سوى خبر حجّ لمدّة أربعة أيّام تاركًا القارئ أمام قراره. و**شمشون** أيضًا لا يحقّ له أن يسمّى قاضيًا وإن كان هبة من الله لامرأة عاقر. فعلى الرغم من أنّ الملاك الذي بشّر به دعاه مخلّص الشعب من يد الفلسطيّين (قض ١٣: ٥)، فبدلاً من نصرة شعبه تسبّب بتفاقم وضعهم بتصرّفاته وبزواجه من امرأة فلسطيّة خدعته. كانت انتصاراته كذبة خادعة مثل حرق محاصيل الفلسطيّين، كما أنّ نصره النهائيّ كان مضحكًا مبكيًا: سجن في معبد الإله داجون، فطلب من الربّ: «شدّدني يا ربّ هذه المرّة لأنتقم لعينيّ من الفلسطيّين دفعةً واحدة» (قض ١٦: ٢٣-٣١). ثمّ هدم المعبد عليه وعلى أعدائه. فهل هذه هي قدرة الله الكلّيّة؟[٢]

- أمّا **صموئيل** الذي على مثال شمشون، فوُهب لامرأة عاقر بعد تضرّعها (١ صم ١: ٥)؛ فقد وُضع بعد ولادته في هيكل شيلو تحت رعاية عالي كاهن الهيكل الذي ساعده على فهم ظهوراته الليليّة (١ صم ٣)، وبعدها كان له مثل يوسف سيرةٌ من دون شائبة فاعتُبر قاضيًا ونبيًّا وكاهنًا، أي الناطق الرسميّ باسم الله فطغت سلطته على سلطة شاوول الذي مسحه.

في كلّ ذلك احتفظ الله لنفسه بحقّ التدخّل المباشر، فكانت مثلاً الكوارث التي حلّت بالفلسطينيّين عندما استولوا على تابوت العهد ووضعوه قرب داجون إلههم (١ صم ٥: ٦). وقد أتى التفسير اللاهوتيّ ليشير إلى هدفين: الأوّل هو أنّ الله أقوى من داجون حتّى في عقر داره، والثاني هو حثّ الشعب على الابتعاد عن الإشراك وعبادة الله الذي لا إله سواه فيبعدون عن بيوتهم وحياتهم كلّ بعل وعشتروت (١ صم ٧: ٤)... لكن في حين تحقّق الهدف الأوّل فخاف الفلسطيّون الله، بقي الهدف الثاني بعيدًا جدًّا عن التحقيق ولم

٢ يُذكر شمشون في العهد الجديد في محاولة لتسوية الأوضاع (عب ١١: ٣٢).

يتمكّن الله من جعل المؤمنين به أوفياء له بعيدين عن الإشراك. فمن هو هذا الله الكلّيّ القدرة إلاّ على شعبه؟

وبعد ذلك مباشرة نرى الشعب يطلب من الله أن يعطيهم ملكًا يحكمهم مثل كلّ الأمم. ورغم معارضة صموئيل فقد استجاب لهم قبل أن يعترف أمام صموئيل بأنّه أخطأ في اختياره لشاوول (١ صم ٨). فمن هو هذا الربّ الذي يُخطئ ويعترف بخطئه؟

نحن أمام تناقضات لاهوتيّة يصعب تفسيرها، فهمها القدّيس بولس على أنّها خيار الربّ «للضعف»!

- ويكمل الله مشروعه الخلاصيّ في التاريخ، على الرغم من «خطأه وفشله»، فيرسل صموئيل ليمسح ملكًا اختاره بطريقة تناقض كلّ العادات والتقاليد التي أراد صموئيل مراعاتها في حقّ الأكبر والأفضل. كان داود عديم الأهمّيّة لدرجة أنّ أباه نفسه لم يستدعه للمثول مع إخوته السبعة (١ صم ١٦: ١٢). من قبل، على عهد شاول الملك، كان داود يظهر تارةً شجاعًا ومقاتلاً جيّدًا وذكيًّا، وطورًا ولدًا مراهقًا (١ صم ١٧: ١٣-١٤). لم يكن يصلح للانضمام إلى الجيش، فكيف له أن يواجه جليات الجبار؟ وعندما أراد ذلك ولبس درع شاول لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة بحمله الحربيّ، فكان مدعاة للسخريّة (١ صم ١٧: ٣٨-٣٩). أخذ دور زعيم عصابة متسلّحًا بسلاحه السخيف (مقلاع). إنّ الله يختار الضعفاء ليمثّلوه! غريب أمره، لكنّ ضعف الضعفاء يُظهر أنّ الغلبة تأتي من الله وحده. وبعد فترة طويلة من الفشل والتعرض لمحاولات الاغتيال من قبل شاول وصل داود إلى الملك وأصبح ملكًا على سبط يهوذا وحده، فكان في أوّل عهده ضعيفًا، احتاج إلى جمع القبائل الأخرى في حين كانت حاشيته تتقاتل للحصول على المناصب: يوآب قائد جيشه قتل أبنير قائد جيش شاول الذي تحالف مع داود والتحق به (٢ صم ٣)؛ ورغم أنّ داود لعنه أصبح لمدّة طويلة قائدًا عامًّا للجيش. بعد هذا نرى داود المقاتل الجيد، والرجل الذكي يجمع الانتصارات الديبلوماسيّة (توحيد كلّ إسرائيل) إلى الانتصارات الحربيّة. كان الله سبب فشله الأوّل، وقد فسّره النبيّ الكاتب بأنّ الله لم يقبل أن يبني داود له قصرًا، وقد ظنّ أنّه القادر على أن يجعل الله يستقرّ في مكان واحد. ولكنّ جواب الله الحقيقيّ ورد على لسان النبيّ ناتان الذي يُعيد داود إلى مكانته: «من أنا يا ربّ ومن هي عائلتي حتّى أوصلتني إلى ما أنا عليه اليوم»؟ (٢ صم ٧: ١٨). يشكّل هذا الفصل (٢

صم ٧) أساسًا لكلّ الانتظارات المسيحانيّة التي تقوم على انتظار مسيح من سلالة داود، لكنّ هذه السلالة لم تكن يومًا تاريخًا مقدّسًا يسير بحسب إرادة الله وسيادته مع أن حكم سليمان ابنه ظهر في بدايته كأسطورة جميلة.

– هذه الفترة الحلم سرعان ما هُدمت بسبب انشقاق المملكة إلى مملكتين، «إسرائيل» في الشمال و«يهوذا» في الجنوب. فقد اشتهر خلفاء سليمان من سلالة داود، بعدم أهليّتهم ليس لعدم جدارتهم السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة، بل لعدم وفائهم للإله الواحد والتزامهم به. أمام هذه الأحداث يمكن القول إن الأنبياء الكتبة فهموا معنى آخر لخيار الربّ. فهموا أنّ الله اختار الضعف وعدم إظهار سيادته على الأحداث في مواجهة ملوك شعبه الضعفاء الخونة. فعلى الرغم من كلّ تاريخهم غير المشرّف أصرّ الله على خياره، وعلى الرغم من السبي وزوال المملكة الداوديّة والهيكل عينه، وعلى الرغم من الخضوع لسلطةٍ غريبة، بقي هو الإله الواحد الذي لا إله إلا هو. رافقهم في سبيهم كما رافقهم قبلاً في عبوديتهم في مصر، وفي ضياعهم في صحراء الخروج، وفي فترات الصعوبة أيّام القضاة... أليس في ذلك اعتراف بأنّه اختار الضعف، وأن يعرفه شعبه من خلال مشاركته لهم في ظروف ضعفهم؟

في قرون الانحطاط هذه كان اليهود يطلقون على أنفسهم اسم «فقراء يهوه». هذا ما نقرأه في كتابات أشعيا وإرميا وفي مزامير كثيرة، ولكنهم في ذلك لم يفكّروا يومًا في أنّهم منسيّون؛ ففي كلّ شيء عرفوا أنّهم شعب الله المختار[٣]. وهنا لا بدّ لنا من الإشارة إلى المفارقة في أنّ الكتاب المقدّس بدأ بعد المنفى بإطلاق اسم «خالق الأرض» على الله، فهموا أنّه خالق الأرض والإنسانيّة كلّها وليس فقط شعب اسرائيل (أش ٤٥: ١١). عندما كانت كلّ المخاطر تدلّ على أنّه إله مهزومٌ جُرّد من ممتلكاته، أعلن المؤمنون أنّه لا «إله إلا الله» الواحد الأحد. فهموا أن الله هو الصخرة الوحيدة (أش ٤٤: ٨)، لكنّه فهم أن قدرته ليست قدرة سحريّة تتلاعب بمصير الأحداث والكائنات، لتخلق سيادة عسكريّة واقتصاديّة وثقافيّة لشعب يظنّ بأنّه الأمّة المفضّلة.

٣ رج التطويبات في مت ٥: ٣-١٢ ؛ لو ٦ : ٢٠-٢٣ .

- هذا الوعي «لضعف» الله يظهر في نصّ معبّر نقرأه في كتاب **النبيّ دانيال** الذي يعود إلى حقبة مظلمة من التاريخ اليهوديّ تحت سيطرة الأمبراطوريّة اليونانيّة السلوقيّة. فقد أدخل أنطيوخوس الرابع صنم زوس إلى هيكل أورشليم، ممّا شكّل جرحًا عميقًا لم يلتئم طيلة الأجيال، وبقي محفورًا في القلوب والضمائر تحت عنوان «رجاسة الخراب»، بمعنى رجاسة هذا الغاصب المحتل الذي تصدّر مكانًا محرّمًا لا يمكن له التواجد فيه» (رج مر ١٣: ١٤؛ مت ٢٤: ١٥). في سياق سرده للسبي ونكران المؤمنين لإيمانهم بالله تحت هول الصعوبات والاضطهادات، يدعو كتاب دانيال اليهود المضطهدين إلى الوفاء للربّ حتّى الشهادة. فيعظّم ذكر رفاق دانيال الثلاثة في المحرقة وقد رفضوا السجود أمام آلهة بابل على الرغم من عدم معرفتهم إذا كان الله قادرًا على أن يخلّصهم: «إن كان الله قادرًا على إنقاذنا من أتّون النار فليفعل، وإلاّ فاعلم أيّها الملك أنّنا لن نعبد آلهتك ولن نسجد لتمثال الذهب الذي أقمته» (دا ٣: ١٧). صحيح أنّهم لا يعلمون ماهية قدرة الله أمام الاضطهاد ولا كيفيّة ظهورها، لكن ذلك لا يغيّر شيئًا في إيمانهم وثقتهم به. هذا الكتاب يدعو إلى إيمان وثقة كلّيّة بالربّ رغم عدم تأكّدنا من أنّ الربّ سيهبنا الحماية والخلاص المنشودين.

يجرؤ هذا الكتاب المتأخّر في كتابات العهد القديم، على الدعوة إلى الإيمان الواثق بالله، دون معرفة كيفيّة الخلاص الذي يحقّقه أو فهم كيفيّة الحماية التي يرجوها منه.

٢ - في العهد الجديد

«في الضعف يظهر كمال قدرتي» (٢ كو ١٢: ٩)

أ - لاهوت بولس

يشكّل هذا التأكيد الذي نقرأه في الرسالة الثانية إلى أهل كورنتس، صدى لما كان بولس قد كتبه لهم في رسالته الأولى عن اختيار الله للضعف: «اختار الله ما يعتبره العالم حماقة ليخزي الحكماء، وما يعتبره العالم ضعفًا ليخزي الأقوياء» (١ كو ١: ٢٧)، لكنّه هنا

لا يعلن عقيدته الإيمانيّة الخاصّة، بل يكشف عن وحي ناله من الله شخصيًّا، وكأنّه يريد أن يكشف هويّته وجوهره ليعرفه الجميع: «**قالَ لي: «تكفيكَ نِعمَتي. في الضُّعفِ يَظهَرُ كَمالُ قُدرَتي. فأنا، إذًا، أفتَخِرُ راضِيًا مُبتَهِجًا بِضُعفي حتّى تُظَلِّلَني قُوَّةُ المَسيحِ**» (١ كو١٢: ٩).

كان بولس «جنون» هذا التأكيد «ها أنا قد صرت أحمق» (٢ كو١٢: ١١) إنّ بالنسبة إلى اليهود أو بالنسبة إلى اليونانيّين، ومع ذلك تمسّك به وأعلن أولويّته وأفضليّته على الآيات والأعاجيب وأعمال القدرة على أنواعها، وقد كان الكورنثيّون شهودًا عليها (٢ كو١٢: ١٢). كلّ هذه الأعمال القديرة التي حقّقها بولس وأنجزها أمام الجميع دون أن يذكرها في كتاباته أبدًا، تشكّل بالنسبة إليه برهانًا على كونه رسولاً للإنجيل، لكنها لا تكشف ما نريد أن نعرفه عن الله الأحد. فإن كان الكورنثيّون وقرّاء الرسالة يريدون التعرّف إليه ولقاءه، فعليهم أن يبحثوا عنه في حالات الضعف والظروف الصعبة التي يشارك فيها أحبّاءه، ورسوله، وكنيسته. إنّه في الحقيقة لاهوت غريب عن المنطق البشريّ، لاهوت من الصعب فهمه، لكنه جوهر الإنجيل ولو ظهر «حماقة» في نظر العالم. جديد إله هذا الإنجيل، الذي يعلم المؤمنون به أنْ «إله إلاّ هو» (٢ كو٨: ٤)، اختار الضعف على عكس ما نظن أو نعرف في حكمتنا البشريّة.

هذا الضعف يجبر الناس على عدم إدخاله في حروبهم مهما كانت «عادلة» في عيون من يقرّرونها، ويجبرهم على التفريق ما بين بركته والنجاح الشخصيّ أو الجماعيّ الذي يحققونه. هذا الضعف الذي اختاره الله يشجب كلّ سعي وراء الأعاجيب والآيات التي نتهافت عليها حتّى اليوم، وعليه، يدعونا هذا الاختيار القائم إلى ملوكيّة لا تمتّ إلى ما نتصوّره بصلة، إلى رفض جذريّ لكلّ علاقة لله بالعلاقات السياسيّة والاقتصاديّة الماليّة والاجتماعيّة وحتّى الدينيّة المرتكزة على علاقات القوّة.

«أنا لا أستحي بالإنجيل»، يقول بولس، على الرغم من كونه «حماقة» في نظر الناس، لأنّ الإنجيل هو «قدرة الله لخلاص كلّ من يؤمن، يهودًا كانوا أم يونانيّين» (رو١: ١٦). هنا يكشف الله عن نفسه، وعن قدرته الكاملة. هذه هي البشارة الكبرى الثوريّة. ولأنّ بولس كان يعلم تمامًا أنّ البشر على اختلاف أجناسهم وثقافتهم يبحثون عن الله في طريق مناقضة لحقيقته، نراه يطلق أحيانًا إعلانات تسارع التقوى واللاهوت إلى تخفيف حدّتها: «نحن نبشّر بمسيح مصلوب»، «إنّه قدرة الله وحكمة الله»، «قرّرت ألاّ أعرف بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوبًا»، « كنت بينكم خائفًا مرتعدًا»... (١ كو١: ٢٣؛ ٢: ٢-٣). هذا

ليس لاهوتًا سهلاً، ولا لاهوتًا يمكن قبوله والاطمئنان إليه. فنحن نبحث عادة عن راحتنا عند الإله الذي نرجو أن يحقّق كلّ رغباتنا، وبولس نفسه لم يتردّد في التوسّل إلى الله «ثلاث مرّات» أن ينجّيه ممّا يسمّيه «شوكة في جسدي»، لكنّ الجواب كان: «في الضعف يظهر كمال قدرتي».

ليس كلام بولس مجرّد فرضيّة بل اكتشافٌ مذهلٌ ينير جوهر البشارة الجديدة. ولكن هل يعتبر هذا لاهوت القدّيس بولس وحده؟ وهل يتفق معه الإنجيليّون مثلاً؟

ب - في الأناجيل: تجارب! وموت!

- يسوع ابن الله الحبيب يجرَّب

أظهرت الدراسات الإزائيّة غنى النظرات المختلفة إلى صورة يسوع الموحّدة ومحاولة كلّ إنجيليّ أن ينفتح عليها بطريقته الخاصّة. في اختلاف نظراتهم، يتوحّد الإزائيّون حول إشارة تثير الاستغراب تتمثّل في نقلهم لـ «تجارب يسوع» مباشرة قبل بدئه برسالته العلنيّة. في هذا الإطار، يكتفي مرقس بآيتين تثيران التساؤلات أكثر مما تعطيان إجابات، فيعلن بأنّ «الروح القدس»، أي روح الله العامل بشكل سرّيّ خفيّ، «أخرج يسوع إلى البرّيّة» دون أيّة إشارة أخرى تحدّد موقع هذه البرّيّة مما يدلّ على مساحةٍ لاهوتيّة أكثر منها جغرافيّة[٤]، تعلن أنّ هذه الإقامة في الصحراء هي إرادة الله بالذات؛ «فأقام فيها أربعين يومًا»، وفي ذلك أيضًا إشارة إلى مدّة رمزيّة أكيدة؛ «يجرّبه الشيطان» (مر ١: ١٢-١٣). في هذه العزلة الصعبة وفي خضمّ التجارب الشيطانيّة لم يكن يسوع متروكًا، بل «كان هناك مع الوحوش»، و«كانت تخدمه الملائكة»[٥]. لكنّ مرقس لا يقول شيئًا عن مضمون هذه التجارب ولا عن سببها، وقد وضعها مباشرة بعد حدث عماد يسوع وإعلان الله من السماء: «أنت ابني الحبيب، بك رضيت» (مر ١: ١١). ولكن على الرغم من غياب تفسير الحدث فتدوينه هو تأكيد على أهمّيّة تجارب المسيح التي لا يمكن إغفالها.

٤ يأتي النصّ في إطار التقليد اليهوديّ الذي يعطي للبرّيّة رمزيّة كبرى تبنّتها المسيحيّة عامة والحياة النسكيّة التصوّفيّة فيها بشكل خاصّ.

٥ لا يمكننا إلا أن نرى في النصّ هذا إشارة إلى النصّ المسيحانيّ بحسب أش ١١ : ٦-٠٩

أمّا متّى ولوقا فقد أخذا من مصدر واحد نصًّا من ثلاث مراحل يقدّم تفسيرًا مهمًّا للحدث. لكنّنا لن نتوقّف عند الاختلافات التي نجدها بين النصّين الإنجيليّين حول ترتيب التجارب، فما يهمّنا هنا هو أنّ يسوع رفض ثلاث مرّات تجربة السلطة المطلقة التي عُرضت عليه بأشكال ثلاثة مختلفة. وفي المرّات الثلاث لم يكن العرض من الله بل من الشيطان. فأن يرمي يسوع بنفسه من أعلى الهيكل دون أن يلحق به أذى، ما هو إلا «أعجوبة بهدف الأعجوبة»، عرضٌ لقدرة خارقة تفتن الإنسان وتغريه وكأنّه يقول للناس: «تعالوا إليّ فأنا قادر على كلّ شيء، ومعي تستطيعون أن تنالوا كلّ شيء». وأن يحوّل الحجارة إلى أرغفة خبز يعني أنّه قادر على الإعلان بأنّه قادر على إلغاء المجاعة والبؤس، وبالتالي قادر على إرساء علاقات مصالح متبادلة بينه وبين الناس، كما تعني طلبات بشريّة ماديّة لا يمكن أن تعرف شبعًا على كلّ الأصعدة. أمّا عرض امتلاك السلطة على كلّ الأمم وهي قِمّة العروض الشيطانيّة ففيه انكشاف تام لجوهر التجربة المتمثّل بالتعامل مع البشر كقدرة كلّيّة. فهل سيقبل يسوع بأن يكون المسيح بواسطة السلطة التي لا تقاوم؟

رفض يسوع أوّلاً الأعاجيب المجّانيّة التي لا هدف لها سوى الإبهار والإغراء، كما رفض ثانيًا الأعاجيب المفيدة التي تهدف إلى الإشباع، وكما رفض أخيرًا السيطرة والاعتراف الرسميّ به كمسيح الله. ولنا في حدث نقرأه عند مر ٨: ٣٢-٣٣ ومت ١٦: ٢٢-٢٣ برهان على أنّ هذه التجارب كانت حقيقة واقعة في حياة يسوع وليس مجرّد فكرة لاهوتيّة وسّعها الإنجيليّون. فعندما عاتب بطرس يسوع على إعلانه أنّ جميع السلطات اليهوديّة (الشيوخ والكهنة والكتبة) سترفضه، وأنّه سيتألّم ويموت، كان جوهر المعاتبة الغاضبة مطالبته يسوع بفرض نفسه مسيحًا كلّيّ القدرة، لأنّ الألم والموت يعنيان تخاذلاً وجبانة، وخيانة لله العليّ القدير. فبالنسبة إلى التلاميذ لا يمكن للمسيح إلا أن يكون ظافرًا كلّيّ القدرة. وقد أتى جواب يسوع على موقف بطرس هذا كأقسى كلمة توجّه إلى إنسان: «ورائي يا شيطان! أنت لي سبب عثرة لأنّ أفكارك هذه أفكار البشر لا أفكار الله».

في حواره مع الشيطان، حيث يستعمل الطرفان كلام الكتب المقدّسة كبراهين قاطعة، فسَّر يسوع العرض بأن يرمي نفسه عن الهيكل كمحاولة «لتجربة الله بالذات»[٦]. وقد طُبق

٦ إنّ في بعض الطلبات التي تقدّم لله تحديًّا غير مقبول للربّ. هذه كانت حال التذمّر والتطلّب التي عاشها شعب الله في البرّيّة دون أن يكتفوا بما أعطي لهم من تحرّر وانتصارات على العبوديّة وعلى المستعبدين، ودون الانتباه إلى نعمة العهد. وكان هذا هو السبب الذي أطال المسيرة في الصحراء إلى أربعين سنة (عد ١٤: ١١). وقد استعاد المزمور ٧٨ هذا الموضوع: «جرّبوا الله في قلوبهم طالبين طعامًا يشتهوه»، «وكم عادوا وجرّبوا الله... ولم يذكروا ما صنعتْ يده... وعادوا وجرّبوا الله العليّ وتمرّدوا ولم يحفظوا فرائضه» (مز ٧٨: ١٨، ٤١، ٥٦).

موضوع «تجربة الله» على يسوع ليس فقط في برنامج التجارب الافتتاحيّة بل في إطار ما طلبه أحد علماء الشريعة (لو ١٠: ٢٥) وآخرون (١١: ١٦) محاولين وضع يسوع أمام امتحان صحّة إيمانه، أو أمام «تجربة» تبيان قانونيّة مسيحانيّته من خلال قدرته على صنع «آية من السماء» (لو ١١: ١٦). فما يجمع شعب البرّيّة في الخروج مع مجادليّ يسوع هو وضعهم الله أو يسوع أمام معايير يحدّدها من يطلب دون أيّ اعتبار لمشروع الله أو لطريقة يسوع في كشفه عن نفسه أمام الناس. فطلبات اليهود، كما الأسئلة الفخاخ، وطلب الآيات من السماء تتحوّل كلّها إلى تجارب تحاول إجبار الله، وإجبار يسوع على تغيير جوهرهما بحسب رغبات الطالبين. إنّه عمل «العدوّ» المرموز إليه بالشيطان أو أبليس. فالتجربة التي اعترضت يسوع في بدء رسالته العلنيّة تهدف إلى نسف كلّ مشروع الله وإفشال يسوع من خلال رضوخه لإغراء القدرة الكلّيّة.

في هذا الإطار يجدر بنا التذكير بأنّ الإنجيل الرابع يرفض تمامًّا الكلام على أية أعجوبة، كما يرفض كلّ معجم القدرة، فيمايز في الحوار بين بيلاطس ويسوع، بين مملكة يسوع ومملكة قيصر، ويعطي لارتفاع يسوع على الصليب معنى الرفعة والتمجيد بالقرب من الآب.

- يسوع ابن الله الحبيب يموت

في أساس فهمنا لمسيحانيّة يسوع لا يمكن إلا أن نُدخل موته المهين، الذي تمّ بناء على إرادة السلطة الدينيّة بالتوافق مع السلطة الرومانيّة، حتّى ولو لم يأخذ بيلاطس بجديّة ملوكيّة يسوع المجرّدة من كلّ سلطة. موت يسوع هذا الذي رفضه تمامًا الإثنا عشر والتلاميذ والتلميذات، كان لا بدّ لهم من إدخاله في بشارتهم الجديدة لأنّ القيامة لا يمكن أن تمحوه. فالقيامة لم توصف، ولم تُعلن إلا من خلال الظهورات. إنّها تجبر المسيحيّين على الاعتراف بموت يسوع وعلى الاعتراف بأنّه قِمّة معارضة البشر لله، وقِمّة محبّة الله والتزامه تجاه البشر. هذه هي قدرة الله المفاجئة لحكمتنا وفكرنا، وهكذا كشفها يسوع المسيح. يلعب نصّ تجارب يسوع إذًا في بدء رسالته العلنيّة دور المفتاح لقراءة كلّ الأناجيل، ولا يمكن إلا أن نربط هذه التجارب بإعلانات يسوع الثلاثة عن موته. لقد رفض يسوع أن يتصرّف وكأنّه شافٍ، ولم يقبل أن يأتي إليه الجمع على أنّه الكلّيّ القدرة الذي يستطيع بسحره ان يعطيهم كلّ ما يرغبون فيه، ولا معنى لكلّ ما عمله وعلّمه،

إلا في ارتباطه المباشر مع ما جاء يعلنه: «اقترب ملكوت السماوات». هذا هو الحدث الأوّل والأهمّ وكلّ الباقي يبقى علامة له. فأن يطلب الإنسان آية دون أن يهتم بالحدث الأساس هو أن يكون من «الجيل الشرير الفاسد» (مت ١٢: ٣٦)، وبالتالي لا يمكن ليسوع أن يلبّي طلبًا كهذا لأنّه يكون قد خان نفسه. لذلك نراه يعيد من يطلبون آية إلى آية يونان الذي قبل أن يكون آية للموت والقيامة في اليوم الثالث (مت ١٢: ٤٠)، كان من دعا إلى التوبة، وهذا ما فعله الربّ بإعلانه الأوّل: «اقترب ملكوت الله... توبوا وآمنوا بالبشرى الجديدة» (مت ٤: ١٧).

- ونحن؟

نؤمن بأنْ «لا إله إلاّ الله» طبعًا، فإيماننا بالله الواحد الذي لا إله سواه هو من البديهيّات، ولكن من هو هذا الله؟

في لوحة الدينونة الأخيرة التي يرسمها متّى الإنجيليّ، عودة إلى «الجنون» و«الحماقة» التي أعلنها القدّيس بولس، تذكير برفض «التجربة» الكبرى التي توسّع بها الإزائيّون. إنّ متّى يتجرأ في لوحته الأخيرة أن يجعل من لقاء الدينونة مناسبة لدهشة عامّة تطال الجميع. فمسيح الربّ حاضر يمكن للجميع أن يلتقيه لكنّ بعضهم يبحثون عنه حيث يريدون فلا يجدونه، في حين يجده بعضهم الآخر دون أن يحدّدوا مجالات بحثهم ودون أية شروط مسبقة، وذلك في الاتجاه المعاكس لكلّ ما هو سلطة مقتدرة، وعظمة وجلال وظهورات خارقة وآيات بيّنات. وجدوه ما بين البشر العاديّين غير المعتبرين، وبين الفقراء المهمّشين والخطأة المحكوم عليهم! إنّه بالفعل واقع يدعو إلى الدهشة والاستغراب.

عندما فهم بولس كلام الربّ الصعب: «نعمتي تكفيك، وقوّتي تظهر في الضعف»، ونقله إلى أهل كورنتس، لم ينقل لهم سرًّا شخصيًّا بل كلمةً إلهيّة تتعلّق بالكنيسة. وعندما اختتم كلامه بـ: «أنا أفتخر راضيًا مبتهجًا بضعفي حتّى تظلّلني قوّة المسيح» (٢ كو ١٢: ٩)، كان بولس واعيًا أنّ الأنا التي يتكلّم عليها تتخطاه لتطال الكنيسة بأكملها. كنيسة هذا «الله» وهذا «المسيح» لا يمكن أن تكون كنيسة متسلّطة مسيطرة، ولا يمكنها أن تتشبّه «بالأمم» حيث «الرؤساء» و«العظماء» يتسلّطون ويسودون (مر ١٠: ٤٣). هنا يظهر التحدّي واضحًا للحكمة اليونانيّة ولكلّ حكمة بشريّة، كما للاّهوت التقليديّ. ويمكننا في هذا الإطار العودة

إلى الرسائل الموجّهة إلى الكنائس السبع في كتاب الرؤيا (رؤ ١-٣) حيث الدعوة إلى الكنيسة واحدة: «أن يكون لها آذان لتسمع ما يقوله الروح»؛ فأن تكون ساهرة (٣: ٢-٣)، وثابتة في أعمالها وجهدها وصبرها (٢: ٢) لا يعوّض خسارة العلاقة مع المسيح والاكتفاء الذاتي القاتل. فمسيح الله لا يمكنه أن يصبح سجين نظام دينيّ مهما كان مقدّسًا، لأنّه مسيح ليس له «مكان ولا حجر يسند إليه رأسه»، ولا يمكن أن يُمتلك كضمانة قوّة قديرة.

قال يسوع يومًا للصدّوقيّين، «الاختصاصيّين» بشؤون الله، «أنتم في ضلال لأنكم تجهلون الكتب المقدّسة وقدرة الله» (مر ١٢: ٢٤؛ مت ٢٢: ٢٩). صحيح أنّ في هذا اللوم آثارًا للصراع اللاهوتيّ بين المجمع اليهوديّ والجماعات المسيحيّة الناشئة، لكنه يبقى دعوة لنا اليوم نحن الذين نسعى إلى معرفة المسيح معرفة حقّة. فلا بدّ لنا من تحديد ضلالنا، لأنّ جهلنا للكتب لا يعني أنّنا لم نقرأها وحسب، بل يعنى أنّنا نجهل كيفيّة قراءتها وفهمها ويعني بالتالي أنّنا نجهل معناها الصحيح وما تقدّم لنا لنفهم قدرة الله الحقّة.

تُظهر كلّ نصوص العهد الجديد، المتعلّقة بالقدرة الإلهيّة أو بقدرة مسيحه وروحه، أنّها قدرة بعيدة كلّ البعد عمّا نعتبره نحن البشر قدرة وقوّة. فقدرة الله هي الإنجيل (رو ١: ١٦) وهي كرازة الإنجيل (٢ تس ١: ٥؛ ١ كو ٢: ٤-٥) وهي بخاصّة «لغة الصليب» (١ كو ١:١٨-٢٤)؛ إنّها قوّة القيامة وهبة الروح القدس (أع ١: ٨)؛ وهي الإيمان والثبات في «معرفة المجد الذي يشعّ في وجه المسيح» (٢ كو ٤: ٦-٧).

بالمحصّلة يمكننا التأكيد أنّ مفهوم القدرة الإلهيّة في العهد الجديد مرتبطٌ تمامًا بالضعف، وأن ما يسعى إليه البشر من قدرة كلّيّة يشجبه يسوع المسيح لأنّه يغيّر كلّ معنى الإنجيل. إنّ القدرة الخارقة المؤلّهة التي يسعى إليها الإنسان تعيد الإنسانيّة إلى صناعة الوثن التي يسخر منها أشعيا (٤٤: ٦-٢٣).

يبقى أن نفهم هذا الضلال «الصدّوقيّ» في لاهوتنا وروحانيّاتنا وليتورجيّاتنا وصلواتنا الشخصيّة، وأن نقبل هذه الحقيقة التي تثير دهشتنا واستغرابنا فنعتبرها «حماقة» تارة و«شكًّا» تارة أخرى، ونعلن أمام الملأ إيماننا بأنْ «لا إله إلا الله» الذي اختار أن يُظهر كمال قدرته في الضعف، ضعف المصلوب القائم من الموت.

الخاتمة

في هذه القراءة للتاريخ المقدّس حاولنا أن نبرّئ الله من صورة القدرة كما يفهمها البشر. قراءتنا هذه أردناها في زمن تسعى فيه الأديان والمؤمنون بها إلى التشبّه بـ «الله الذي لا إله إلاّ هو»، وقد جعلوه على مثالهم. نحن في عالم يسعى فيه الجميع إلى بسط قوّته وقدرته ومصالحه على الجميع وعلى كلّ شيء، باسم الله القويّ القدير الذي ينتصر لشعبه على أعدائهم. إنّه زمن القوّة البشريّة التي على الرغم من قدراتها العلميّة والماديّة والتكنولوجيّة، لم تستطع أن تؤمّن السلام وفرح الحياة. هكذا برزت بدعٌ من كلّ نوع تُكثِر الوعود كما تُكثِر الفرائض، فينضمّ إليها كلّ الفقراء الذين طالما وقف يسوع أمامهم «مشفقًا» (مر ١: ٤٣)، «ضامًّا إيّاهم إلى صدره» (مر ٩: ٣٦)، «باكيًا أمام جهلهم» (لو ١٩: ٤١) وموتهم (يو ١١).

في خضمّ هذه الأجواء التي تعمّ أرضنا اليوم علينا أن نعاند في تأكيد قدرة الله الكلّيّة بإطلاقنا عليه وصف الخارق الذي لا يوصف، أو بترددنا ما يقوله الجميع تقليديًّا، هو أن نعاند في جهلنا وفي رفضنا للإنجيل. فأين نجد أنّ إله يسوع طلب مرّة الثأر لقوّته وجبروته؟ ألم يطلب بالأحرى الاعتراف الأوحد بأنّه محبّة؟ ألم يكن طلبه الوحيد من الذين آمنوا ويؤمنون به أن يحبّوا كما أحبّهم، وأن ينشروا محبّته فيكونوا نورًا وملحًا وخميرًا؟ ألم ينعت يسوع من طلبوا الآيات والقدرات والقوّات العجائبيّة بـ «الجيل الشرير الفاسد» (مت ١٢: ٣٩؛ ١٦: ٤)، وأكّد أنّهم «جيل غير مؤمن» (مر ٩: ١٩)، «جيل خائن شرّير» (مر ٨: ٣٨)؟ أليس عنادنا في الإيمان والرجاء بأنّ الله قدرة كلّيّة يحقّق أحلامنا، هو عناد في رفض الله الذي كشف عن ذاته بصورة المسيح المصلوب الذي محا بآلامه وصلبه صورة الله العليّ القدير؟

انتهى القرن العشرون على تحقيق البشريّة عظائم وقدرات خياليّة، وعلى حروب ومجازر غير مسبوقة. فالقويّ الذي يظنّ أنّه مبارك من الربّ، سمح لنفسه بتوسيع مصالحه مطمئنًا إلى دعم الله له. ألم يحن الوقت للعودة إلى قراءة صحيحة للكتب المقدّسة؟ ألم يحن الوقت للقبول بأنّ عمل الله ليس أن ينزع سلاح الشرير، ولا أن يجعل من المؤمنين به شعبًا لا يُمسّ ولا يُقهَر؟ ألم يحن الوقت لنقبل بأنّ الله الخالق والمخلّص اختار القبول بأن يُرفض ويُستهزأ به ويُنكر ويُشوّه...

في كلّ ذلك بقيت له «بقيّة» آمنت بأنْ «لا إله الاّ الله» الذي كشف عن نفسه، ليس كإله

حرب ونصرة وغلبة، بل كإله يجب أن نتعرّف إليه من خلال مشروعه الذي يرفض أن يحقّقه بالقمع والقوّة، شاجبًا بالتالي كلّ علاقات القوّة التي نرسيها استنادًا إلى إيماننا به.

هذا هو الجنون الذي فهمه بولس الرسول من خلال حياة يسوع، وهو الجنون الذي نحن مدعوّون إلى عيشه في اتباعنا للربّ. أفلا يجب إذًا أن تموت فينا فكرة الله الأكبر بقوّته وقدرته، كما مات يسوع على الصليب، لكي تقوم كما من القبر بشرى «محبّة الله»: فيجد فيها كلّ إنسان الحياة والحرّيّة والفرح الكامل؟

فلنعلن جميعنا إذًا: نؤمن بأنْ لا إله إلاّ الله الذي اختار الضعف ليخزي الأقوياء.